

أكاديمية الشنقيطي
للدراستات الشرعية واللغوية



تفريغ محاضرة

منهج التعليم العتيق

في بلاد شنقيط

للشيخ محمد محمود أحمد الشيخ الشنقيطي

حفظه الله

المحاضرات

المُفَرَّغَة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على أفضل المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وأصحابه
أجمعين، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

سبحانك لا عِلْمَ لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

سيكون هذا العرض أو هذه الكلمة عن "طرق التعليم العتيق في بلاد شنقيط".

وهذا تعليمٌ ممتدٌ لعدة قرون، وهو لا يختلف عن الطرق العتيقة والقديمة كثيراً التي كانت موجودة في بلاد
المسلمين كطريقة الكُتَّاب المعروفة في كثيرٍ من البلدان، وقد نشأ عِلْمُ الشناقطة أولاً: في المدن كمدينة
شنقيط، ومدينة وادان، ومدينة تيشيت، ومدينة ولاتة، لكنه بعد ذلك خرج إلى البادية وأصبح علماً بدوياً.
وهي مفارقة.

البدَاوة العالمة؛ فإن أهل البدَاوة أصلاً لم يكونوا أهل عِلْم، والبادية ليست محلَّ عِلْم، لكنَّ الشناقطة صنعوا
هذا الفرق، وقد كانوا يُدرسون هذه العلوم ويتدارسونها في البوادي وتحت الحَيِّم وعلى ظهور الإبل وعند
حواضر المياه، كما قال الشاعر العلامة المختار بن بونا -رحمه الله-:

ونحن ركبٌ من الأشراف منتظمٌ أجلُّ ذا الخلق قدراً دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسةً بها نُبين دين الله تبياناً

(قد اتخذنا ظهور العيس) يعني الإبل، (مدرسةً بها نبين دين الله تبياناً).

فكانوا يُدرسون هذا العِلْم ويتدارسونه في البوادي وتحت الحَيِّم وعلى ظهور الإبل:

تهوي بهم راقصات العيس طاويةً أخفافها من عراض البيد ما انتشرا
بُزلاً سمى النبيُّ في أثابجها وعلى غربانها لبدت أذناها الخطرا

ومن أهل العِلْم من فضّل الإقامة عند بعض الحواضر ولم يشأ الترحال لكي يخلو له البال ويشتغل
بالعلم، ومنهم العلامة مُحمَّد مولود بن أحمد فال الشنقيطي رحمه الله صاحب التصانيف الجامعة والتأليف

النافعة. يقول:

أمرني قومي بالارتحال مع ذوي الأغنام والآبال
قلت لهم كلاً ولا أبالي لا تجعلن يا باسط النوالي
جسمي لأم درن وبالي

ومع ذلك فإن معظم المشايخ كانوا ينتجعون ويرتحلون وكانوا يسيرون في البلاد سيراً، ومع ذلك حفظوا هذا العلم.

والكلام عن هذه التجربة لا بد أن نمر فيه بعدة أمور:

- الأمر الأول: هو تنشئة الأطفال عند الشناقطة، كيف يُنشئهم تنشئة علمية؟.
- الأمر الثاني: دخول المحظرة، وما المنهج العلمي الذي يُتبع في المحظرة؟، وطريقة التلقي من الشيوخ، وما تمتاز به المحظرة الشنقيطية عموماً.

أما عن التنشئة؛ فإن أول ما يبدأ به الطفل طبعاً هو التهجي أي أن يتعلم الحروف، وأن يحفظ ما تيسر له من كتاب الله تعالى، فأول ما يبدأ به: حفظ القرآن الكريم، لكن مع حفظ القرآن هناك تنشئة أخرى يُمارسها الأبوان، فالأب مثلاً يُحفظ أولاده الفوائد والأشعار ويُعلمهم تمييز الأسماء من الأفعال ويُعلمهم الإعراب، فينشأ الشاب وهو قد حفظ قدرًا كبيرًا من أشعار العرب.

أنا مثلاً أحفظ الآن قصائد لا أدري متى حفظتها لفرط صغري لأن أبي رحمه الله تعالى كان يُلقني إياها في صباي، وكان يُعلمني مبادئ التمييز بين الاسم والفعل والحرف، فحين يُتقن الطالب هذا التمييز يرتفع به إلى الإعراب، فيقول له: اعلم يا بني أن مرفوعات الأسماء هي كذا وكذا وكذا، وأن منصوبات الأسماء هي كذا وكذا وكذا، وأن مجرورات الأسماء.

ويبدأ في تعليمه الإعراب مع تحفيظه حصّة لا تقل عن بيتين من الشعر في كل يوم، فينتظم من ذلك عددٌ كبيرٌ من الأشعار يحفظها الصبي وهو في الخامسة والسادسة والسابعة من عُمره، فلا يبلغ العاشرة إلا وقد حصلَ علمًا جمًّا من ذلك.

وللأم أيضاً كذلك مهمتها في التعليم، والغالب أن الأم تقص على الطفل قصص السيرة النبوية وقصص الأنبياء وينشأ الطفل الذي أمه من أهل العلم عالماً بالسيرة النبوية وبقصص القرآن الكريم، وبأنساب العرب وبأيام العرب، فهي غالباً تقص علينا هذه القصص وتأخذها منها، والحفظ في هذه المرحلة يبقى، (التعلم في الصغر كالنقش في الحجر) كما قالوا.

ويُحفظونهم مع ذلك أشعاراً تُرغبهم في طلب العلم، وتُعلمهم الآداب والأخلاق:

إذا المرء ذا أصلٍ أصيلٍ إذا انتسب
ولم يكُ ذا علمٍ ولم يكُ ذا أدب
ولم يكُ أهلاً لافتتاح عويصةٍ
ولا السير الحسنى ولا ألسن العرب
ولم يدر ما طي العروض فخبنه
ولم يدر ما الأوتاد فالفرقُ فالسبب
فما هو إلا كالسراب بقيعةٍ
يرى أنه الظمان ماءً وقد كذب

يُعلمونهم ويحفظونهم الأشعار التي تحث على الأخلاق والآداب:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه
لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه
ولست للعرض إن أودى بمحتال

وقال:

يُعَاتِبُنِي فِي الدِّينِ قَوْمِي وَإِنَّمَا
لَهُمْ جَل مَالِي إِنْ تَتَابَع لِي غَنِي
وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ
أَسَدُّ بِهِ مَا قَدْ أَخْلَوْا وَضَيَّعُوا
وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لِحُومَهُمْ
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرِّي
دُيُونِي فِي أَشْيَاءٍ تُكْسِبُهُمْ حَمْدًا
وَإِنْ قَل مَالِي لَا أَكْلِفُهُمْ رِفْدًا
وَلَيْسَ رَئِيسَ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا
تُغَوِّرَ حُقُوقٍ مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدًّا
وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلِفٍ جَدًّا
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنِيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَرُّ بِهِم سَعْدًا

هذه الأشعار التي تحمل الإنسان على محاسن العادات والأخلاق، كما قال أبو تمام:

ولولا خصال سنّها الشعر ما درى بغاة العلام من أين تؤتى المكارم

إذا حفظ الطالب القرآن الكريم وحفظ معه ما تمهياً له من هذه الأشعار ومن تلك الآثار والأخبار والسير، فإنه حينئذٍ يلتحق بالمحظرة.

والغالب أنه قبل التحاقه بالمحظرة أيضاً يأخذ من علوم القرآن عِلْمَ مقرئ الإمام نافع وكذلك كتاباً في رسم القرآن الكريم، قبل أن يذهب إلى المحظرة.

المحظرة عبارة عن نظام تعليمي حُر يقوم عليه شيخ أو شيوخ محتسبون يُدرسون احتساباً لله تَعَالَى، لا يتقاضون على ذلك أجرًا، يجلس الشيخ منهم صباحًا من الساعة الثامنة تقريبًا إلى الثانية ظهرًا، هذا في خمسة أيام من الأسبوع ماعدا الخميس والجمعة، فهذان هما العطلة.

وقد يُدرس أيضاً كذلك في المساء، فيتعبون وينصبون من أجل أن يُحصل الطلاب ذلك العِلْمَ، ومن أجل أن يبنوا هذا الجيل المتعلِّم.

ويُروى أن العلامة مُجَّد سالم ولد ألما رحمه الله تَعَالَى كان إذا ردّه حر الظهيرة من درسه وهو مُتعب وقف أمام بيته وأنشد:

إِذَا كَانَ هَذَا الدَّمْعُ يَجْرِي صَبَابَةً عَلَى غَيْرِ لَيْلَى فَهُوَ دَمْعٌ مُضَيِّعٌ

يعني إذا كان هذا الجُهد لغير وجه الله تَعَالَى فأنا مغبونٌ خاسر، أنا أتعبُ كثيرًا، فإذا كان هذا التعب لغير وجه الله تَعَالَى فأنا مغبون، ويُنشد في ذلك قول الشاعر:

إِذَا كَانَ هَذَا الدَّمْعُ يَجْرِي صَبَابَةً عَلَى غَيْرِ لَيْلَى فَهُوَ دَمْعٌ مُضَيِّعٌ

كانوا يُنفقون على الطلاب مع ضيق ذات يد أغلبهم، فالغالب أن الشيخ أيضا يُنفق على كثير من الطلاب، ومن قصصهم التي تُروى في ذلك: أن خادمةً كانت تصنع الطعام للطلاب -وهي غير متعلمة لكن مرت على أذنها متون كثيرة فأصبحت تُميز بين المتون الطويلة والقصيرة- فسمعت طالبًا يقرأ ويجاؤل أن يحفظ وهو يقول:

"يقول الفقير المضطر لرحمة ربه المنكسر خاطره لقلة العمل والتقوى خليل بن إسحاق المالكي الحمد

فقلت له: "ما زلت ستأكل كثيراً من هذا الطعام"، يعني أنها تعرف أنه في بداية كتاب طويل جداً.. (كألت لُو مَزَلْتُ لَاهِ تَوَكَّلَ يَاسِرٌ مِنْ انْفَكَ العَيْشِ) هي تصنع لهم العصيد.

هذا المنهج المحظري يمتاز بسمات منها: الشمول، أنه خريطة شاملة لعلوم الشريعة وآلاتها، تُدرس فيه علوم اللغة العربية بنحوها وصرفها وبلاغتها وبلغتها المعجمية، ويدرس فيه الفقه المالكي وتدرس فيه علوم الحديث وعلوم القرآن والفقه طبعاً وأصول الفقه والقواعد، فهو منهج متكامل، كما قال العلامة حرمة بن عبد الجليل في وصفه لدرس شيخه العلامة المختار بن بونا، قال:

كنا مع البوني في عرساتها هالات بدرٍ ليس فيها غيب
فيها تجمع سيويه ويوسف والكاتب والاشعري وأشهب

فيها تجمع سيويه هذا يمثل اللغويين، يوسف يعني السكاكي هذا يمثل البلاغيين، فلكل مدرسة من يمثلها من هذه المدارس العلمية.

ويقول العلامة أيضا سيدي محمد بن الشيخ سيديا رحمه الله تعالى:

وكم سمرتُ سُمَّاراً فُتُوًّا إلى المجدِ انتَدُوا مِنْ مَحْتَدِينِ
أذاكِرِ جَمْعُهُمْ وَيُذَاكِرُونِي بكلِّ تخالفٍ في مَذْهَبِينِ
كخلفِ اللَّيْثِ والنُّعْمَانِ طَوْرًا وخلفِ الأشعريِّ معِ الجَوِينِ
وأورادِ الجُنَيْدِ وفرقتيهِه إذا وَرَدُوا شَرَابَ المَشْرَبِينِ
ونحوِ الستةِ الشُّعراءِ نَحْوِ ونحوِ مُهَلْهَلٍ ومُرْقَشِينِ
وشعرِ الأعشىِّينِ إذا أردنا وإن شئنا فشعرِ الأعميينِ
وأحياناً نَمِيلُ لَذِكْرِ دارِ وكسرى الفارسيِّ وذو رُعينِ

فكانوا يجولون في هذه العلوم كلها.

فهو منهج شامل.

كذلك أيضًا من سمات هذا المنهج: أن الطالب يدرس وحده، فهذا أيضًا كذلك مما يجعل الشيخ يراعي حال الطالب؛ فإن من آفات التعليم العصري أنه يجمع كثيرين في درس واحد مع أن الناس تختلف فهمهم ومدارسهم واستعدادهم في الفهم، فأنت إذا درّست ذكيًا خطابك له يختلف عن خطابك للغبي إذا درّسته، فإذا جمعت بين الذكي والغبي فكيف تُدرس؟

إدًا هو تدرّس فردي، كل طالب يدرس بمفرده، فالشيخ إذا جاءه هذا الطالب هو يعرف مدى إدراكه فيُخاطبه بما يُناسبه، فهذه سمة مهمة في هذا التعليم.

وقد يجمعون طالبين أو طلابًا قليلين ويُسمون ذلك بـ"الدولة" وغالبًا ما يُبنى ذلك على أن بين هؤلاء الطلاب معاصرةً وتناسبًا في العمر وتقاربًا في الفهم والإدراك، فإذا كان الطالبان متقاربين في الفهم والإدراك والسن ربما اجتمعا في درسٍ واحدٍ ويُسمون ذلك "الدولة".

من سمات هذا المنهج أيضًا كذلك: أن الطالب يدرس كتابًا واحدًا حتى ينهيه، لا يدرس كتابين إذا أخذ هذا الكتاب واصل معه حتى ينهيه، ويكرهون الجمع بين كتابين في وقتٍ واحدٍ ويقولون في ذلك:

وفي ترادف العلوم المنعُ جاء إن توءمان استبقا لن يخرجنا

يعني أنك إذا جمعت بين كتابين لن تستفيد منهما فهما كالتوأمين يستبقان ولن يخرجنا إذا استبقا.

ومن سمات هذا المنهج: الجو العلمي الذي يعيش فيه الإنسان، فالطالب يستمع يوميًا إلى دروس الآخرين وتمر على آذانه كثيرًا من الأشعار ومن المنظومات فيعلق بذهنه كثيرًا لكونه سمعه، حتى ولو لم يكن درسه.

أنا مثلاً شخصيًا حفظتُ أنظمةً كثيرةً بمجرد أنها كانت تُقرأ بجواري، يعني كان يسكن معي طلاب يدرسون هذه الأنظمة فمن خلال قراءتهم هم لهذه الأنظمة حفظتها أنا، فلما جئت لأقرأ هذه الكتب وجددتني أحفظها، وأنا لست من أحفظ الطلاب، لكن هذا أمرٌ مشاهد عندما تكن في هذه البيئة ويتكرر عليك يوميًا هذا فإنك تحفظ، ويقع لك أيضًا مثل ذلك في فهم النصوص واستيعابها.

مثلاً: نفترض أنني مثلاً أنا الآن أدرس "ألفية ابن مالك" وأني سأقرأ درسًا من (باب التصريف) عندما يأتي الشيخ سيبدأ بالطالب الذي يدرس من أول "ألفية ابن مالك" من المقدمة مثلاً، ثم يُدرس بعده

صاحب (أبواب النيابة)، ثم يُدرس بعده صاحب (المعرفة والنكرة) وصاحب (المبتدأ والخبر) فلن يصل
الدرس إلي إلا وقد استمعت ما يناهز عشرين درسًا أو نحو ذلك، هذه الدروس تتكرر يوميًا علي فأنا أحضر
في كل يوم وأسمع هذه الدروس وهي تتكرر فهذا مما يرسخ العلم عندي، تكرر هذه الدروس بشكلٍ مستمر.

كذلك أيضًا من سمات هذا المنهج: التقلل من الكتب والمطالعة أثناء حفظ المتن.

الطالب إذا كان يعالج متنًا يحفظه ويُحاول أن يفهمه ينبغي أن يتقلل من المطالعة وأن يتقلل من الكتب
بله الشواغل التي لا علاقة لها بالعلم، وما أكثرها اليوم!، فنحن نتكلم حينئذٍ عن التقلل من الكتب، الآن
التقلل من الهاتف من باب أولى طبعًا، الشواغل الكثيرة التي تصد.

مما ساعد على ذلك أولًا: أن الكتب لم تكن بتلك الوفرة في ذلك الزمن بل كانت قليلة، وكان العالم
يكون عنده صندوق واحد من الكتب، لكنه في الغالب يكون حافظًا لما في ذلك الصندوق، وربما حفظ
العالم صندوق كتبه حتى لم يعد يستفيد منها شيئًا، وحينئذٍ يستعير كتب غيره، ومما يُروى في ذلك قصة
للعلامة مُحمَّد بن الطلبة رحمه الله تعالى أنه أرسل إلى العلامة حرمة بن عبد الجليل يطلب منه إعارة كتاب
"تبصرة الحكام" لابن فرحون، وكان العلامة حرمة مولعًا بهذا الكتاب ومهتمًا به ولكن لم تطاوعه نفسه أن
يجبسه عن ابن مشايخه وعن العلامة الشاعر الفحل مُحمَّد بن الطلبة.. فأرسل له الكتاب وأرسل معه أبياتًا
يقول فيها:

يا ابن المشايخ والأشياخ أسلافه
لكن تبصرة الحكام مبخلة
جزاء من يسعف العافين إسعافه
ولؤلؤ وسواد القلب أصدافه
ومن أعار سواد القلب أتلفه
لكن يهون علينا فيك إتلافه

وبعث له بذلك الكتاب.

إذا كانوا يتقللون من الكتب والمطالعة أثناء فترة التحصيل؛ لأنهم يبنون علمهم على أساس هذه المتنون
التي هي سُلم متدرج يصل الإنسان من خلاله إلى ذروة العلم ففي كل فنٍّ من الفنون يدرسون مقدمات، ثم
يدرسون كتبًا فوق ذلك، ثم كتبًا فوق ذلك، حتى يكون الرَّجُل منهم عالمًا متصدرًا للعلم.

وأولع الشناقطة بالمنظومات، فدرّسوا المنظومات ودرّسوها ونظموا أيضًا كتبًا منشورة كثيرة.

نظموا "الرسالة" لابن أبي زيد القيرواني ونظموا "مختصر خليل" ونظموا "جمع الجوامع" لابن السبكي،
ونظموا كثيراً من المختصرات، أيضاً كذلك "مختصر الأخصري" في الفقه إلى غير ذلك.

فاهتموا بالنظم لأن النظم حفظه أسهل، فالغالب أن الإنسان يسهل عليه الحفظ.

وطبعاً من أهم ما يمتاز به المنهج المحظري: الحفظ، أن الإنسان يحفظ، فالعلم فازت به الحفاظ، العلم لا

بد له من الحفظ كما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

عِلْمِي مَعِي حَيْثُمَا يَمَّمْتُ يَتَّبِعُنِي

صَدْرِي وَعَاءٌ لَهُ لَا جَوْفَ صُنْدُوقِ

إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي

أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ

وقال ابن حزم:

تَضَمَّنَهُ الْقُرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي

فَإِنْ يُحْرِقُوا الْقُرْطَاسَ لَا يُحْرِقُوا الَّذِي

وَيَمَكْتُ إِنْ أَمَكْتُ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي

يَسِيرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رِكَائِي

وقال بعضهم:

فَإِنْ لِلْكَتَبِ آفَاتٌ تُفْرِقُهَا

عَلَيْكَ بِالْحَفِظِ دُونَ الْعِلْمِ فِي كِتَابِ

وَالْفَأْرُ يُحْرِقُهَا وَاللِّصُّ يَسْرِقُهَا

فَالْمَاءُ يُغْرِقُهَا وَالنَّارُ تُحْرِقُهَا

الكتب لها آفات.

فالعلم هو الحفظ، ولذلك اعتنوا بالحفظ واهتموا به اهتماماً كبيراً.

والغالب عندهم أن الإنسان لا يدرس درسا (أو هذا هو الذي يعتمد عليه كثير من الشيوخ) حتى يحفظها.

ولا يأخذون العلم إلا عن الشيوخ؛ لأن العلم من أفواه الشيوخ لا من بطون الكتب كما قال أبو حيان:

أَخَا فَهْمٍ لِإِدْرَامِ الْعِلْمِ

يُظُنُّ الْعَمْرُ أَنَّ الْكَتَابَ تَهْدِي

غَوَامِضَ حَيْرَاتِ عَقْلِ الْفَهْمِ

وَمَا يَدْرِي الْجَهْلُ بِأَنَّ فِيهَا

ضَلَلَتْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

إِذَا رُمَتْ الْعُلُومُ بِغَيْرِ شَيْخٍ

تَكُونُ أَضَلُّ مِنْ تَوْمَاتِ الْحَكِيمِ

وَتَلْتَبِسُ الْأُمُورَ عَلَيْكَ حَتَّى



طريقة الحفظ عندهم

طبعًا الحفظ ليس له طريقة إلا التكرار، لكن الإنسان ينبغي أن يجتهد في التكرار وأن يتحرى الأوقات والوسائل التي تُعينه في تثبيت الحفظ، فمن ذلك وقت السحر، ومن ذلك وقت الصباح حين يكون الإنسان فارغ البال، فهذه أوقات مباركة نافعة معينة على الحفظ، ولا بد من كثرة التكرار ولا بد أيضًا كذلك من مراجعة المحفوظات.

وطريقة تلقيهم هي: أن الطالب يكتب درسه بالمداد في اللوح الخشبي، فإذا كتبه وخطه بيمينه عرضه على الشيخ أو على نابه من الطلاب ليتأكد من صحة ما كتب، فإذا تأكد من ذلك تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الحفظ، يبدأ بحفظ هذا الدرس.

فإذا حفظه جاء به إلى الشيخ ليدرسه عليه، فإذا درسه عليه خرج من عنده يُراجع لنفسه ويطلب من الطلاب أيضًا من يراجع له، فإذا نبه وأصبح على قدر معتبر من العلم درّس، والتدريس أيضًا يُثبت العلم وينفع، فهذه هي المراحل هي مرتبة عندهم، وقد نظمها العلامة محمد فال بن متّالي -رحمه الله تعالى- فقال:

كُتِبَ إِجَازَةٌ وَحَفْظُ الرَّسْمِ قِرَاءَةٌ تَدْرِيسٌ أَخَذَ الْعِلْمِ
وَمَنْ يُقَدِّمُ رَتْبَةً عَنِ الْمَحَلِّ مِنَ الْمَرَاتِبِ الْمَرَامِ لَمْ يَنْبَلِ

أي: هذه مراحل مرتبة.

(كُتِبَ) تكتب الدرس.

(إِجَازَةٌ) أي: تصحيح الدرس.

(وَحَفْظُ الرَّسْمِ) تحفظه.

(قِرَاءَةٌ) تقرأ على الشيخ، بعد ذلك (التدريس).

فيأخذون العلم بهذه الطريقة، وإذا درس الطالب فإنه يخرج ويُراجع، ويُجرد من نفسه مخاطبًا يعني مثلًا

أنا درست درسًا من مختصر خليل أو من ألفية ابن مالك أو من أي كتاب، أخرج من عند الشيخ وأجلس تحت شجرة أو آوي إلى أي ظلٍّ وأُجرد من نفسي مخاطبًا أقول: قال لك الشيخ:

يتسامرون يتساجلون فيما بينهم، وهذه المسامرات والمحادثات كثيرًا مما تكون فيها أشعار وتكون فيها ألغاز وتكون فيها فوائد كثيرة، وعلم الألغاز أيضًا مما اعتنى به الشناقطة ولهم فيه مؤلفات سواء كانت ألغاز فقهية أو ألغاز نحوية، أو غير ذلك، ومن أشهر ذلك قصيدة العلامة بيها رحمه الله تعالى التي أولها:

ألا حي دورا بالأبيتر من دعد عفتها روايا الدلو بعدك والسعد
وبالوهد وهد البير دور محيلة لدى حيث قل الطلح من ذلك الوهد

إلى أن يقول:

أعني على برق أراه على بُعد يُضيء حبيًا مثل حاشية البرد
وعون قصيرات الحجال عزيزة لها مالك جدٌ وحسبُك من جدِ
فمنها وضوء كالتيمم مبطل له الطول عند الأعلمين ذوي الرشد
وماء طهور خالطوه بطاهرٍ كجرعة شهدٍ قد تنجس بالشهدِ

وهكذا، كل العلوم الأخرى.

أتيناك نوكي مرملين فواسنا بإسلام صحبي على يد تابع
وسبق أب ميلاده مولد ابنه بست وخمس ما عززن بسابع

هذان البيتان فيهما لغز يتعلّق بالصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه.

ما هو الصحابي الذي هو أسنُّ من ابنه بإحدى عشرة سنة؟

عبد الله بن عمرو بن العاص حملت أمه به من عمرو بن العاص وعمرو بن العاص ابن عشر سنين، يعني عمرو بن العاص حملت زوجه وهو ابن عشر سنين فهو أكبر من ابنه عبد الله بإحدى عشرة سنة.

أيضًا من الألغاز التي تتعلق به، اللغز الثاني:

من هو صحابي أسلم على يد تابعي؟

عمرو بن العاص أسلم على يد النجاشي والنجاشي ليس صحابياً، وعمرو بن العاص صحابي، فهذا صحابي أسلم على يد تابعي... وهكذا، هذه أمثلة فقط.

هذه الألباز تكون في السيرة في الفقه في النحو في كل الأبواب، وهي مسامرات ومساجلات بين الطلاب يستفيد فيها بعضهم من بعض.

أيضاً طالب العلم هناك لا بد له من آداب وأخلاق يلتزم بها الطالب في كل وقت وفي كل مكان كما قال العلامة حماد بن الأمين رحمه الله تعالى :

لَه تَغَرَّبٌ وَتَوَاضَعٌ وَاتَّعَرُّعٌ وَجُوعٌ وَهَنٌْ وَاعْصِ هَوَاكَ وَاتَّبِعْ
حَتَّى يُرَى حَالُكَ حَالَ الْمُنْشَدِ لَوْ أَنَّ سَلْمَى أَبْصَرَتْ تَخَدِّي
وَدَقَّةً فِي عَظْمِ سَاقِي وَيَدِي وَبَعْدَ أَهْلِي وَجَفَاءَ عَوْدِي
عَضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ أَنْامِلُ

فلا بد للطالب في الغالب أن يتغرب أي: أن يسكن بعيداً عن أهله ليتفرغ لطلب العلم.
ويقول بعضهم:

الجهل والأهل مقرونان في بلدٍ فاصبر عن الأهل أو فاصبر على الثاني

إما أن تصبر عن الأهل أو تصبر على الثاني وهو الجهل، أن تصبر على كونك جاهلاً.

فطالب العلم ينبغي أن يتغرب، وأن يكون مستقيماً في دينه؛ لأن العلم كما قال الشافعي:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نورٌ ونور الله لا يُؤتى لعاص

ولا بد أيضاً أن يصبر على ما يُصيبه من الجوع والشدة، ومما يُروى في ذلك أن العلامة أحمد بن كداه رحمه الله تعالى كان يدرس ألفية ابن مالك فنجد ما عنده من النفقة وضائق عيشته عليه، ولم يشأ أن يرجع إلى أهله قبل أن يُكمل "ألفية ابن مالك" فقال:

فمن مبلغ أهلي بأني هاهنا أقاسي هموما لستُ فيها بأوحدِ
يُساورني جُنُدا أبي وابن مالكِ ومن ساور الجنُدين لاشك يجهدي

الجوع في اللغة العربية يقال له: أبو مالك، أبو مالك كُنية الجوع.

أي: يصول علي جند أبي مالك وهو الجوع، وجند ابن مالك؛ لأنني أدرس ألفيته أيضًا.

فلا بد من الصبر والتحمل والاستقامة والتعُرب حتى يُحصل الإنسان العِلم.

وإذا حصل العِلم انتدب حينئذٍ للتدريس إن شاء، ويُنشئ محظرة على غرار ما كان شيوخه أيضًا كذلك، وإن شاء أيضًا ألف فمن المشايخ من يجمع بين التدريس والتأليف، ومنهم من يُؤلف ولا ينتظم مع الطلاب، ومنهم من يتفرغ للطلاب ولا يجد وقتًا للتدريس.

العلامة شيخ الشيوخ يحظيه بن عبد الودود رحمه الله تعالى محظرتَه كانت من أغرب المحاضر هناك، ولم يُؤلف لماذا؟ لأنه لا يجد وقتًا للتأليف لكثرة تراحم الطلاب على بابه، قال تلميذه مَم بن عبد الحميد:

ولم يُصنّف لاذحام المدرسه عليه كل نفسٍ تنفسه

فالطلاب يزدحمون على بابه ازدحامًا شديدًا فلم يجد وقتًا للتأليف لكثرة تفرغه لتدريس الطلاب رحمه الله تعالى، لكنه صنع الرجال، خرَّج أجيالًا من العلماء رحمه الله تعالى رحمةً واسعة، ورحمهم الله تعالى أجمعين.

كذلك أيضًا من خصائص هذه المحظرة: الاعتناء بالمباحثات العلمية وبالنوازل والأحكام والخلافات التي تقع في كل فنٍّ من الفنون وما يقع في ذلك من الأشعار ومن المرويات بينهم .

وقعت مثلًا نوازل تتعلق بالأجاس قيلت فيها أشعار كبيرة، وبعضها يتعلّق ببعض مخارج الحروف كمسألة مثلًا الضاد والطاء، نرى مثلًا أن العلامة مُحمَّد بن أحمد يوره رحمه الله تعالى كان يثلب على من يُقرب الضاد من الطاء، ويقول في ذلك:

إن الحمامة إذ غنَّت على الوادي أودت بصبر عميد ما له وادي
غنَّت لنا بحروف ضاع مخرجها فما تُميز بين الطاء والضاد

وفي المقابل يقول العلامة باب بن الشيخ سيديا رحمه الله تَعَالَى وهو ممن يرى تقريب الضاد من الظاء:

الضاد حرفٌ عسيرٌ يُشبهه الظاء	لا الدال أشبه في شيء ولا الطاء
لحنٌ فشا منذ أزمانٍ قد اتبعت	أبناؤنا فيه أجدادًا وآباء
من غير مستندٍ أصلاً وغايتهم	إلف العوائد فيه خبط عشواء
والحق أبلج لا يخفى على أحدٍ	إن استضاء بما في الكتب قد جاء
هذا هو الحق نصالاً لا مرد له	من شاء بالحق فليؤمن ومن شاء

وقرظ هذه الأبيات العلامة حبيب بن الزائد رحمه الله تَعَالَى فقال:

أحييت يا شيخ رسم العلم إحياء	نعم، وأسمعت لو ناديت أحياء
لكن ظلام الهوى أعمى البصائر من	من عارضوك بما لم يجد إعماء
قد عارضوك بأن الضاد لم يك عيـ	ن الظاء واستحسنوا من ذاك ما ساء
كأنهم غفلوا عما افتتحت به	"الضاد حرفٌ عسيرٌ يُشبهه الظاء"
وليس جعل ذوي الإنكار ضادكم	ظاء يُصيرها في نفسها ظاء
فالخس يغلط في الأشياء يحسبها	شيئاً كما قد يظن الشيء أشياء
وحبك الشيء أحياناً يُصم كما	عن أفضل الخلق خير العرب قد جاء
ما قُلت إلا الذي في الكتب جاء ومَن	لم يتصف بالحقا فليات ما شاء

على غرار هذه المساجلات التي كانت تكثر في كل شيء في أي مسألة حدثت.

الطوارئ التي تأتي يتناولونها، مثلاً عندما جاء الشاي اختلفوا فيه، هل هو مباح أو غير مباح؟ حتى مكبر الصوت، إلى غير ذلك من المستحدثات، الصلاة في الطائرة أيضاً.

كما قال العلامة محنض باب بن أمين في مباحثه الفقهية فقد ذكر بعض هذه الأشياء.

يقول في مسألة زكاة الأوراق والعملات:

قد اختلفى النقدان مذ أعصار	عن القرى والمدن والأمصار
----------------------------	--------------------------

من ورق جرى بها التعامل
 لها على امرئ لها قد ملكا
 فيه الزكاة وبذاك جزموا
 أمثالها عن الهداة السلف
 ولم تدر يومئذ في خلد
 في عصرنا مثل نقود المعدن
 تدفع في السديات والمهور
 لا يتعامل به في مصر
 من هذه العمل عن أهل الثرى
 مبتكراً أول الأمر أنكرا
 ما من خلاف فيه كان وقعا
 في حل كل منهما إذ ظهرا
 ذا الشاي أو ذي القهوة البنية
 من المباحات بدون مين
 للصوت في أول الأمر أنكرا
 جواز الاستعمال للمكبر
 جرى الخلاف عندما ظهرتي
 لست أظن عالماً ينفىها
 وشاحنات البر والطائرة
 إتيانك الشروط والأركان
 لساعة عرفت فيها الانتظام
 هي من أقوى ما عليها اليوم دل
 ربع عشره لجرار مملق
 وفي قوى أنواعه تفاوت

وانتشرت في الخافقين عمل
 فقال قوم لا وجوب لزكا
 وقال قوم هي نقد تلزم
 ليس يؤمل وجود النص في
 لأنها في عصرهم لم توجد
 وهي لدى كل فقير وغني
 تؤخذ في الأثمان والأجور
 ومعدني النقد في ذا العصر
 فخطأ إسقاط حق الفقرا
 وانظر ترى الأمر الجديد إن طرا
 ثم إذا طال البقاء ارتفعا
 فالبن والشاي الخلاف قد جرى
 واليوم لا خلاف في حلية
 إذ كلنا يعلم أن ذين
 كذاك في استعمالنا المكبرا
 واليوم لست واجدا من منكر
 وفي صلاة الناس في الطائرة
 واليوم صحة الصلاة فيها
 فصل في القطار والباخرة
 إن كنت في الكل ترى إمكانا
 واعتمدن في الصلاة والصيام
 فهي من أدلة الأوقات بل
 وأعط من نصاب نقد الورق
 ولا تقل قيمته لا تثبت

فمالك الدولار الأمريكي
فإن تنل من ذلك الدولار
فلتضرب الخمسين في عشرينا
ولتسأل إن أردت أن تزكي
مالك نقد قيم قوي
خمسین نلت قيمة الدينار
يكن لك النصاب مستبينا
عن سعره في السوق أو في البنك

وهكذا، هذه المستحدثات كلها نوقشت.

عندما ظهرت التلفزة، العلامة كراي ولد أحمد يوره تساءل فقال:

يا سادتي العلماء ما حكم نازلة
أعني الذين يخافون الحساب غدا
لا يخلطون حراما في حلالهم
إذا رأوا سنة للمصطفى هُدمت
فهؤلاء هم العاني فحيهم
ما حُكم رؤيتنا شاشات تلفزة
هل هي جائزة قطعاً فنظرها
فهي التي اغتصبت أوقات قربتنا
قد صورت صورة الإنسان كاملة
عمت ولم أعن إلا السادة العلماء
ولا يهابون قانوناً ولا نُظماً
بل يتركون من الأشياء ما انبهما
شادوا من السُنَّة الغراء ما انهدما
عني جميعا وقل يا سادتي الكرما
وصاحب العلم ملعون إذا كتما
أم لا فنحامي من الشاشات كل
فكم أفيتت على الرائي وما علما
تبدي له ضحكاً تبدي له كَلِما

تبدي له حركات كان

فهذه المستحدثات كلها نوقشت هذه النقاشات ورد عليه العلماء طبعاً.

قال شيخنا العلامة مُحَمَّد الحسن بن أحمد الخديم:

أشبهت يا عاقل ابن العاقل العلماء
الآبا ومن يشبه الآبا فما ظلما

إلى أن يقول:

أف لتلفزة للشهر محرزة
فابع السلامة من سلمى وجارها
والسينما وملاه عمّت الأُمما
ولا تمر ولا ترتع بجنب حمى

ولا تقف بديار عن معاهدها بانث سعاد وأمسي حبلها انجذما

والصلاة في الطائرة أيضا كذلك أخذت سجالات آخر، فهذه السجلات معروفة. ومنها مسألة البداوة والحضر؛ لأن المحاضر أصلاً بدوية، وبعض العلماء كان يحرص على البقاء في البدو ولا يُحب الذهاب إلى الحضر، وفي ذلك يقول العلامة نافع بن حبيب -رحمه الله تعالى- عندما قال له بعض أصحابه وذويه أن يبني داراً في الحضر، فالتأس قد تحضروا وانتقلوا إلى المدن. قال:

قالوا ألا تبني داراً بمنزلةٍ فيها تقر وتُنشي كل مرغوبٍ
فقلتُ في ذاك رُشداً وإن خطأً خلاف أسلافنا الغر الأعرابِ
واسمع أسامرك في المعنى بأحسن ما من النسيب لذي الآداب منسوبٍ
ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايبِ
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسنٌ غير مجلوبٍ
أيمن المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب

وأجابه شيخنا العلامة محمد الحسن بن أحمد الخديم -حفظه الله- بقوله:

الدهر ميعاده ميعاد عرقوب والحدس ميعاد ميعاد عرقوب
والحال يضطر للمرغوب عنه كما وليس منه الوفا يوماً بمرقوب
والبدو أهلوه كر الدهر غالبهم يُفضي إلى رغبة في غير مرغوب
وما يقول زياد في بني أسدٍ ففر للمصر منهم كل مغلوبٍ
لم يبق غير طريدٍ غير منفلت ناهيك من مثل إذ ذاك مضروبٍ
جئنا إلى المصر من بدوٍ ويا عجباً وموثق في حبال القد مسلوبٍ
أسلافنا الصلحا لم ترض همتهم أن جا من البدو مصرًا آل يعقوب
لله درهمٌ عاشوا بباديةٍ من المعالي بمأكول ومشروبٍ
حمى الشريعة فيها غير مقروبٍ

والحديث أوسع من هذا، ولكن هذا ما يتسع له المقام الآن، فأقتصر على هذا القدر، بارك الله

فيكم وجزاكم خيراً.

والله تعالى أعلم

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

